منعنا ارسال الآيات إلا تكذيب الأولين والمراد الآيات التي اقترحها قريش من قلب الصفا ذهبا ومن احياء الموتى
وغير ذلك وعادة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستيصال فالمعنى وما صرفنا
عن ارسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد وثمود وأنها لو أرسلت لكذبوا
بها تكذيب أولئك وقالوا هذا سحر مبين كما يقولون في غيرها واستوجبوا العذاب المستأصل وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعث
إليهم إلى يوم القيامة ثم ذكر من تلك الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا واحدة وهي ناقة
صالح لأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم مبصرة بينة وقرئ مبصرة بفتح
الميم فظلموا بها فكفروا بها وما نرسل بالآيات إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى لا نرسلها إلا تخويفا من نزول
العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له فإن لم يخافوا وقع عليهم وإن أراد غيرها فالمعنى وما نرسل ما نرسل من الآيات
كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفا وإنذارا بعذاب الآخرة وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس واذكر إذ أوحينا إليك
أن ربك أحاط بالناس بقريش يعني بشرناك بوقعة بدر والنصرة عليهم وذلك قوله سيهزم الجمع ويولون الدبر قل للذين
كفروا ستغلبون وتحشرون وغير ذلك فجعله كأن قد كان ووجد فقال أحاط بالناس على عادته في أخباره وحين
تزاحف الفريقان يوم بدر ورسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش مع أبي بكر رضي الله عنه كان يدعو ويقول اللهم إني أسألك
عهدك ووعدك ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول سيهزم الجمع ويولون الدبر ولعل الله تعالى أراه مصارعهم
في منامه فقد كان يقول حين ورد ماء بدر والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم وهو يومي إلى الأرض ويقول هذا مصرع فلان
هذا مصرع فلان فتسامعت قريش بما أوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر بدر وما أري في منامه من مصارعهم
فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء وحين سمعوا بقوله إن شجرة الزقوم طعام الأثيم جعلوها
سخرية وقالوا إن محمدا يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر وما قدروا الله حق قدره من قال ذلك وما
أنكروا أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار فهذا وبر السمندل وهو دويبة في بلاد الترك يتخذ منه مناديل إذا
اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالما لا تعمل فيه النار وترى النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد
الحمر كالجمر بإحماء النار فلا يضرها ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة نارا فلا تحرقها فما أنكروا أن يخلق في النار
شجرة لا تحرقها والمعنى أن الآيات إنما نرسلها تخويفا للعباد وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر
فما كان ما أريناك في منامك بعد الوحي إليك إلا فتنة لهم حيث اتخذوه سخريا وخوفوا بعذاب الآخرة وبشجرة
الزقوم فما أثر فيهم ثم قال ونخوفهم أي ونخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة فما يزيدهم التخويف إلا طغيانا كبيرا فكيف
يخاف قوم هذا حالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات وقيل الرؤيا هي الإسراء وبه تعلق من يقول كان الإسراء في المنام
ومن قال كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية وقيل إنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له لعلها رؤيا
رأيتها وخيال خيل إليك استبعادا منهم كما سمى أشياء بأساميها عند الكفرة كقوله انظر إلى إلهك وشركائي ذق إنك
أنت العزيز الكريم وقيل هي رؤياه أنه سيدخل مكة وقيل رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول
الصبيان الكرة فإن قلت أين لعنت شجرة الزقوم في القرآن قلت لعنت حيث لعن طاعموها
من الكفرة والظلمة لأن الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز وقيل وصفها الله
باللعن لأن اللعن الإبعاد من الرحمة وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة وقيل تقول العرب لكل طعام مكروه ضار
ملعون وسألت بعضهم فقال نعم الطعام الملعون القشب الممحوق وعن ابن عباس هي الكشوث التي تلتوي بالشجر
تجعل في الشراب وقيل هي الشيطان وقيل أبو جهل وقرئ والشجرة الملعونة بالرفع على أنها مبتدأ محذوف
الخبر كأنه قيل والشجرة الملعونة في القرآن كذلك طينا حال إما من الموصول والعامل فيه أسجد على أأسجد له

وهو طين

٢٤

وهو طين أي أصله طين أو من الراجع إليه من الصلة على أأسجد لمن كان في وقت خلقه طينا أرأيتك الكاف للخطاب
وهذا مفعول به والمعنى أخبرني عن هذا الذي كرمته علي أي فضلته لم كرمته علي وأنا خير منه فاختصر الكلام بحذف ذلك
ثم ابتدأ فقال لئن أخرتن واللام موطئة للقسم المحذوف لأحتنكن ذريته لأستأصلنهم بالإغواء من احتنك الجراد
الأرض إذا جرد ما عليها أكلا وهو من الحنك ومنه ما ذكر سيبويه من قولهم أحنك الشاتين أي آكلهما فإن قلت من أين علم
أن ذلك يتسهل له وهو من الغيب قلت إما أن سمعه من الملائكة وقد أخبرهم الله به أو خرجه من قولهم أتجعل فيها
من يفسد فيها أو نظر إلى التوسم في مخايله أنه خلق شهواني وقيل قال ذلك لما عملت وسوسته في آدم والظاهر أنه
قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة اذهب ليس من الذهاب الذي هو نقيض المجيء وإنما معناه امض لشأنك الذي
اخترته خذلانا وتخلية وعقبه بذكر ما جره سوء اختياره في قوله فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم كما قال موسى
عليه السلام للسامري فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس فإن قلت أما كان من حق الضمير في الجزاء
أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى من تبعك قلت بلى ولكن التقدير فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك ثم غلب المخاطب
على الغائب فقيل جزاؤكم ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات وانتصب جزاء موفورا بما في فإن جهنم
جزاؤكم من معنى تجازون أو بإضمار تجازون وعلى الحال لأن الجزاء موصوف بالموفور والموفور الموفر يقال وفر لصاحبك
عرضه فرة استفزز استخف والفز الخفيف وأجلب من الجلبة وهي الصياح والخيل الخيالة ومنه قول رسول الله
صلى الله عليه وسلم يا خيل الله اركبي والرجل اسم جمع للراجل ونظيره الركب والصحب وقرئ ورجلك على أن فعلا
بمعنى فاعل نحو تعب وتاعب ومعناه وجمعك الرجل وتضم جيمه أيضا فيكون مثل حدث وحدث وندس
وندس وأخوات لهما يقال رجل رجل وقرئ ورجالك فإن قلت ما معنى استفزاز إبليس بصوته
وإجلابه بخيله ورجله قلت هو كلام ورد مورد التمثيل مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار وقع
على قوم فصوت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى
استأصلهم وقيل بصوته بدعائه إلى الشر وخيله ورجله كل راكب وماش من أهل العيث وقيل يجوز أن يكون لإبليس
خيل ورجال وأما المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها فيهما كالربا والمكاسب المحرمة والبحيرة
والسائبة والإنفاق في الفسوق والإسراف ومنع الزكاة والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام ودعوى ولد بغير
سبب والتسمية بعبد العزى وعبد الحارث والتهويد والتنصير والحمل على الحرف الذميمة والأعمال المحظورة
وغير ذلك وعدهم المواعيد الكاذبة من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة وتسويف التوبة
ومغفرة الذنوب بدونها والاتكال على الرحمة وشفاعة الرسول في الكبائر والخروج من النار بعد أن يصيروا
حمما وإيثار العاجل على الآجل إن عبادي يريد الصالحين ليس لك عليهم سلطان أي لا تقدر أن تغويهم وكفى بربك
وكيلا لهم يتوكلون به في الاستعاذة منك نحو قوله إلا عبادك منهم المخلصين فإن قلت كيف جاز أن يأمر الله تعالى إبليس
بأن يتسلط على عباده مغويا مضلا داعيا إلى الشر صادا عن الخير قلت هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان
والتخلية كما قال للعصاة اعملوا ما شئتم يزجي يجري ويسير الضر خوف الغرق ضل من تدعون إلا إياه ذهب عن
أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحده فإنكم لا تذكرون سواه ولا تدعونه في ذلك الوقت ولا تعتمدون
برحمته رجاءكم ولا تخطرون ببالكم أن غيره يقدر على إغاثتكم أو لم تهتدوا لإنقاذكم أحد غيره من سائر المدعوين ويجوز أن يراد
ضل من تدعون من الآلهة عن إغاثتكم ولكن الله وحده هو الذي ترجونه على الاستثناء المنقطع أفأمنتم الهمزة للإنكار
والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم فحملكم ذلك على الإعراض فإن قلت بم انتصب جانب البر قلت
بيخسف مفعولا به كالأرض في قوله فخسفنا به وبداره الأرض وبكم حال والمعنى أن يخسف جانب البر أي يقلبه وأنتم عليه

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)